الباب الخامس

عذاب النار

– صفة جهنم

يقول الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون)

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك .

إنها نار فظيعة متسعرة وقودها الناس والحجارة.الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة . وفي رخص الحجارة . وفي قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل مابها وما يلابسها فظيع رهيب . عليها ملائكة غلاظ شداد . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون ومن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ناركم هذه التي يوقدون :جزء من سبعين جزءاً من نار جنهم.قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال : فانها

فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها [1])

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم [2])

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تَنفَّس رجل من أهل النار لأحرقهم [3]) .

وعن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان رضي الله عنه فقال: (إنه ذُكِر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً مايدرك لها قعراً والله لتملأنه، أفعجبتم ؟[4]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كنا عند النبي صلى الله فسمعنا وجبة[5] فقال النبي ﷺ : (أتدرون ماهذا ؟) قلنا الله ورسوله أعلم ، قال: (هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن حين إنتهى إلى قعرها [6])

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن مقمعاً[7] من حديد جهنم وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان[8] ماأقلوه من الأرض[9])

وعلى المؤمن أن يقي نفسه ، وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار .

إنها لمسات تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع، وقد سبقه النذير بخطوة. لينقذ

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) رواه احمد ورواته رواة الصحيح .

(٣) رواه البزار وابو يعلى .

(٥) سمعنا وجبه : معناه سمعنا صوتا يشبه سقوط شيء من مكان عال

(٤،٦) رواه مسلم .

(٧) مقمع : المطرق .

(٨) الانس والجن .

(٩) رواه احمد ، وابو يعلى ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .

من يستمع : (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)

لينقذ من يستمع . كالهاتف المحذر من حريق في دار يوشك أن يلتهم من لا يفر من الحريق . وهو تصوير - فوق أنه صادق - بارع موح مؤثر . .

قال الامام أحمد :حدثنا أبو نعيم بشير ابن المهاجر ، حدثني عبد الله ابن بريرة عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات : «أيها الناس أتدرون مامثلي ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم،وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم أيها الناس أتيتم »

وروى بهذا الاسناد قال قال رسول الله ﷺ : بعثت انا والساعة جميعاً . إن كادت لتسبقني »

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيهـا فأنا أخذ بحجزكم[1] وأنتم تقحّمون فيها[2] .

وفي رواية لمسلم « إنما مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله جعل الفراش ، وهذه الدوابُ يقعن فيها ، وجعل يحجزهنّ ويغلبنه ، فيتقحمن فيها ، قال : فذلكم مثلي ومثلكم وأنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار هلم عن النار ، فيغلبوني ويقتحمون فيها » .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار » قال: وأشاح[3] ثم قال : « اتقوا النار » ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة[4] »

---

(١) الحجز - جمع حجزه وهي مقعد الازار .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أشاح : معناه حذر النار كأنه ينظر اليها .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : أنذرتكم النار ، أنذرتكم النار ، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا ، حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه[1] »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هـــذه الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » دعا رسول الله ﷺ قريشا، فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال : يابني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يافاطمة انقذي نفسك من النار ، فاني لا أملك لكم من الله شيئاً[2] »

هذه جهنم ! ففيها الكفاية ! جهنم التي وقودها الناس والحجارة. جهنم التي يكبكب فيها الغاوون وجنود ابليس أجمعون : جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة . جهنم التي لاتُبقي ولا تذر . جهنم التي تكاد تميز من الغيظ .

والغاوون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال « وان جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » . فلكل باب منهم جزء مقسوم بحسب مايكونون وما يعملون . وجهنم تحصرهم فلا يفلت منهم أحد « وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . وجهنم تتسع لهم فلا يندّ عنها أحد « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . هذا هو كل كفار عنيد . هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تباعاً ، وتتكدس ركاما ثم تنادى جهنم هل امتلأت ؟ واكتفيت ! ولكنها تتلظ وتتحرق ، وتقول في كظة الأكول النهم : هل من مزيد فيا للهول الرعيب. انها جهنم. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها[3] »

---

(١) رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه مسلم والبخاري والترمذي والنسائي .

(٣) رواه مسلم والترمذي .

هذه نار الدنيا فكيف بنار الآخرة . ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق. وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله . ومع حريق الآخرة غضب الله والارتكاس الهابط الذميم ونحن نتصور حريق الآخرة من أحاديث رسول الله ﷺ التي أنذر فيها وأرهب :

روى عن أنس رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «وقودها الناس والحجارة» فقال : أوقد عليها ألف عام حتى احمّرت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودّت ، فهي سوداء مظلمة . لا يطفأ لهيبها [1] »

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جاء جبريل الى النبي ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه ، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال : « ياجبريل مالي أراك مُتغير اللون ؟ فقال : ماجئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافخ النار ، فقال رسول الله ﷺ : ياجبريل صف لي النار ، وانعت لي جهنم ، فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودّت . فهي سوداء مظلمة ، لايضيء شررها ، ولا يطفأ لهيبها ، والذي بعثك بالحق لو أن قدر ثقب ابرة فتح من جهنم لمـــات من في الأرض كلهم جميعاً من قبح وجهه ومن نتن ريحه ، والذي بعثك بالحق لو أن حلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقارت ، حتى ينتهي إلى الأرض السفلى ، فقال رسول الله ﷺ حسبي ياجبريل ، لاينصدع قلبي فأموت !» قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال : « تبكي ياجبريل وأنت بالمكان الذي أنت به ؟) فقال : ومالي لاأبكي ؟ أنا أحقُّ بالبكاء ، لعلي أكون في

---

(١) رواه البيهقي والاصبهاني .

علم الله على غير هذه الحال الذي أنا عليها،وما أدري لعلي أبتلى بما أبتلي به ابليس فقد كان من الملائكة ، وما أدري لعلي أبتلى بما أبتلي به هاروت وماروت ، فمازالا يبكيان حتى نوديا أن ياجبريل ويا محمد إنّ الله قد أمنكما أن تعصياه ، فارتفع جبريل عليه السلام)

وخرج رسول الله ﷺ فمرّ بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال : (أتضحكون ووارئكم جهنم ، فلو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ،ولما أسغتم الطعام والشراب ، ولخرجتم إلى الصّعُدات تجأرون الى الله[1])

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل : (مالي لا أرى ميكائيل ضاحكا قط ؟) قال : ماضحك منذ خُلقت النار[2]) .

هذه هي جهنم .. جهنم التي لاتبقي ولا تذر (لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر) فهي تكنس كنساً ، وتبلع بلعاً ، وتمحو محواً ، فلا يقف لها شيء ، ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء ! إنها وعيد مفزع .. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها والى ماأعددتُ لاهلهافيها ، قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها فأمر بها فَحُفّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فرجع إليها ، فقال وعزتك لقد خفتُ أن لايدخلها أحد ، وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها والى ماأعددتُ لأهلها فيها ، قال فنظر إليها فاذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأُمرَ بها فحفّت بالشهوات ، فقال : ارجع اليها ، فرجع اليها فقال وعزتك لقد خشيتُ أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها[3])

---

(١) رواه الطبراني في الاوسط وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » .

(٢) رواه أحمد من رواية اسماعيل ابن عياش وبقية رواته ثقات .

(٣) رواه ابو داود والنسائي والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح .

أما أصحاب النار « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ومـــا جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا)

فهم من ذلك الخلق العجيب المغيب الذي لايعلم طبيعته وقوته إلا الله،وقد قال لنا عنهم أنهم .. (لا يعصون الله) .. فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وان بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرون بهـا .. (ويفعلون ما يؤمرون) ..مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فاذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهـــذه المهمة كما يعلمها الله .

إن هذا القرآن هو تنبه وتذكر فمن شاء فليذكر ومن لم يشأ فهـو وشأنه ، وهو وما يختار من جنة وكرامة أو من سقر ومهانة .

٢ — أهل النار

إن الكفر عمى . عمى في طبيعته .وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء.

والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الايمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تعز فيهـا الرؤية الصحيحة لشيء من الاشياء . والكفر هاجرة حرور.تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف وعدم الاطمئنان الى نشأة أو مصير . ثم تنتهي إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك .

والكفر موت . موت في الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل . . وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبـع الحقيقي المؤثرين في سير الحياة .

إن هؤلاء نتيجتهم أن يكونوا وقوداً لجهنم (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً)

حطباً لجهنم . تتلظى بهم وتزداد اشتعالا ، كما تتلظى النار بالحطب . إن جهنم. تستقبل أهلها الذين كفروا في غيظ وحنق شديد (والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) .

وجهنم مخلوقة تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وهي تفور، ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين . .

ونلمح ظاهرة في خزنة جهنم . . (كلما أُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمعُ أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) .

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق . كما هي مشاركة لها في التعذيب ، وليس أمرّ من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب ! والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة . . فالذي يسمع أو يعقل لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . لا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ثم هو دعاء الله عليهم بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . . (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) . . والسحق البُعد . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعودون من رحمته . لارجاء لهم في مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويالها من صحبة ! وياله من مصير ! . وهذا العذاب عذاب السعير › في جهنم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور ، عذاب شديد مروع حقا . والله لايظلم أحداً . ونحسب والله أعلم — أن النفس التي تكفر بربها — وقد أودع فطرتها حقيقة الايمان ودليله — هي نفس فرغت من كل خير. كما فرغت من

كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود،فهي كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت الى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار . إلى غير نجاة منها ولا فرار . والنفس التي تكفر بالله تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة. صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يُسبح بحمد ربه ،وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التي تشده الى محور الوجود .. ماعدا هذه النفوس الشاردة المفلته من أواصر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية الممسوخة النفور . فأي مكان في الوجود كله تنتهي اليه ، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود انها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتملظة ، الحارقة ، المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة .

إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان :

فريق حي ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية عاملة مفتوحة وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه فتستجيب له (إنما يستجيب الذين يسمعون) .

وفريق ميت معطل الفطرة لا يسمع ولا يستقبل،ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله ــ فدليله كائن فيه ،ومتى بُلِّغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه فاستجابت اليه حتماً ــ إنما ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي . . هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة تكشف حقيقة الموقف كله .

فهذا الذي جاء من عند الله بصائر . والبصائر تهتدي وتهدي (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) وهذا بذاته بصائر

تهدي . فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هـــذه الآيات والبصائر إلا أعمى . معطل الحواس، مغلق المشاعر ، مطموس الضمير .

لقد منح الله سبحانه أسماعاً وأبصاراً وأفئدة (ولقد مكّناهم فيما إن مكّنّاكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) والقرآن يعبر عن قوة الادراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعني الادراك في صورة من صوره - ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء إذ أنهم عطلوها وحجبوها . (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالهـــا) إنهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ، ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أو عطلوا قوة الادراك وراء السمع والبصر ، فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة .

(أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العـــذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) . صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع - والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى عنها ، وهي أن تكون أدوات موصولة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس - والفريق الثاني كالبصير يرى ، وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه .. (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) .. والفرق بين الحق والباطل واضح ؟ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، فالعمى وحده هو الذي يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحس بأثره كل من في السموات والأرض .. (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق

كمن هو أعمى . انما يتذكر أولوا الألباب) .. إن المقابل لمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق . وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده الذي ينشىء الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى . والنـــاس ازاء هذه الحقيقة الكبرى – كما بيّنا – صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمي فهم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب وانطماس قبس المعرفة في الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الاشعاع .. (أفأنت تُسمع الصمّ أو تهدي العُمي ومن كان في ضلال مبين) .

وهم ليسوا صُماً ولا عمياً ، ولكنهم كالصم والعمي في الضلال وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى ، والاشارة الى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع ، وأن يهدي من يبصر . فاذا هم قد عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم (ومنهم من يستمعون إليك أفأنتَ تُسمع الصمَّ ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر اليك أفأنتَ تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون . إن الله لا يظلمُ الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) يستمعون بآذانهم وقلوبهم مغلقة ، وينظرون بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يثوبون من السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون الى الطريق .

إن هؤلاء الخلائق يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا .. إن هـؤلاء لكثير ، في كل زمان وفي كل مكان . والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها .. (صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون) .

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون لتلقي الأصداء والأضواء والانتفاع بالهدى والنور فهم قد عطلوا آذانهم فهم صُم . وعطلوا ألسنتهم فهم بُكمْ ، وعطلوا عيونهم فهم

عمي فلا رجعة لهم الى الحق ولا أوبة لهم إلى الهدى ولا هداية لهم إلى النور .

إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقين مغلقة عند الكافرين . فعلى أبصارهم غشاوة فلا نور يوصوص لها ولا هدى .. (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) .. وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشّى على أبصارهم جزاء وفاقا على استهتارهم بالانذار حتى تَساوى لديهم الانذار وعدم الانذار (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) .

إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة حركة الختم على القلوب والاسماع والتغشية على العيون والأبصار . (فهم صمٌ بكمٌ عميٌ) .. ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون ، فكأنها لا تؤدي وظيفتها التي خُلقت من أجلها ، وكأنهم إذن لم توهب لهم آذان وعيون ، وهذه منتهى الزراية بمن يعطل تفكيره ويغلق منافذ المعرفة والهداية ويتلقى في أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التي ينبغي أن يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة.

إنهم صمٌ لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون غارقون في الظلمات لا يبصرون !.. (والذين كذبوا بآياتنا صمٌ وبكمٌ في الظلمات) .. إنهم كذلك من ناحية التكوين الجثماني المادي فإن لهم عيوناً وآذاناً وأفواهاً ولكن ادراكهم معطل فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ؟.. وانه لكذلك هذه الآيات المبثوثة في صفحات الوجود والآيات الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن .. هذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وايقاعها وتأثيرها لو أنها استقبلت وتلقاها الادراك ، وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته فلم يعد صالحاً لحياة الهدى ، ولم يعد أهلاً لذلك المستوى الراقي من الحياة، (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

إن للهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي .. هذه مصارع الغابرين شاخصة موحية،

تتحدث بالعبر ، وتنطق بالعظات .. (أفلم يسيروا في الأرض) .. فيروها فتوحي لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ ؟ وتحدثهم بما تنطوي عليه من عبر ؟ (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) .. فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنّة لا تتخلف ولا تتبدل ، أفلم تكن لهم قلوب ؟ فانهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون ، ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى ، وجاشت بالعبرة ، وجنحت الى الايمان . ويخلع الله على (الصم البكم الذين لا يعقلون) صورة البهيمة في الحس والخيال !.. (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شرّ الدوابّ عند الله الصمُّ البكم الذين لا يعقلون) .

وانهم لكذلك ! إنها لدواب بهذا الظل . بل هم شر الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ؛ ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتاً مفهومة . إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية .

أما هؤلاء الدواب فهم موكولون الى ادراكهم الذي لا ينتفعون به . فهم شر الدواب قطعاً (إن شر الدواب عند الله الصمُّ البكم الذين لا يعقلون . ولو علِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم) .. أي لأسمعَ قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم ، ولكنه — سبحانه — لم يعلم فيهم خيراً ولا رغبة في الهدى ، فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم . ولو جعلهم الله يدركون حقيقة ما يُدعَون إليه ، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا .. (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .. لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لا يستجيب . فحتى لوأسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة . والاستجابة هي السماع الصحيح . وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب .. (أرأيتَ من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا) .

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، وتحكم شهواتها ، وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تعتنق بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويطاع .

إنه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذي لا جدوى من المنطق معه ، ولا وزن للحجة ، ولا قيمة للحقيقة . فهو غير قابل للهدى . ويخطو القرآن في تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكّمون شهواتهم ، ويتنكرون للحجة والحقيقة ، تعبداً لذواتهم وهواها وشهواتها ، يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل . ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام الى درك أسفل وأحط .

هذه الكثرة التي تتخذ من الهوى إلهاً مطاعاً ، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول ، فهي كالأنعام . وما يفرق الانسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والادراك ، والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع . ووقوف عند الحجة والاقتناع . بل إن الانسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهتدي بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدي وظائفها أداء كاملاً صحيحاً . بينما يهمل الانسان ما أودعه الله من خصائص ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة .

فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا — ودلائل الايمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسالات تدركها القلوب المفترحة والبصائر المكشوفة — وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة ، لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وُهبوها ولم يستخدموها . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون (أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) والذين يغفلون عما

حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . فللأنعام استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والانس فقد زُوّدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فاذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا . إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم ايقاعاتها وايحاءاتها ، فانهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة الى استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجري بهم قدر الله اليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا فكانوا – كما هم في علم الله القديم – حطب جهنم منذ كانوا .. (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوبٌ لايفقهون بها ولهم أعينٌ لايبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

والله سبحانه يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والايمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون .. (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) .

إن أيديهم مشدودة بالأغلال الى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فان رؤوسهم مرفوعة قسراً ، لايملكون أن ينظروا بها الى الأمام ! ومن ثم فهم لايملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! وهم الى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسدّ من أمامهم وسد من خلفهم ، فلو أرخى الشد لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سُدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فان الانسان ليلتقي بأناس من هذا النوع يخيل اليه وهم لايرون الحق الواضح ولا يدركون أن هنالك حائلا عنيفاً كهذا بينهم

وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغـــلال في الأيدي ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك .. مشدودة عن الهدى قسراً وملفوتة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سدٌّ من هنا وسد من هناك .

كذلك يصورهم الله موتى لاحياة فيهم ، صماً لا سمـــع لهم ، عمياً لايهتدون إلى طريق .. (إنك لاتسمع الموتى ولا تُسمع الصُمَّ الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسْمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) . . والذي ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لاحياة فيه . إنمـــا هي حياة حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدي بفطرته التي قلما تخونه ! والذي لايستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصمّ ولو كانت له أذنان تسمعان ذبذبة الأصوات ! والذي لايبصر آيات الله المبثوثة في صفحات الوجود أعمى ولو كانت له عينان كالحيوان !

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ،وهمود الشعور (إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مـــدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .

والقرآن يخرجهم مرة في صورة الموتى ، والرسول ﷺ يدعو ، وهم لايسمعون الدعاء ، لأن الموتى لايشعرون ! ويخرجون مرة في صورة العمي يمضون في عماهم ؛ لايرون الهادي لأنهم لايبصرون !

أما المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ..

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله ، بالحياة والسمـــع والبصر وآية

الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم .

إن الاسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ، فما يكاد القلب السليم يعرفه حتى يستسلم له .

أما الذين لايستجيبون فهم الذين يتعبدون هواهم .. (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) ..

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبّد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلهاً قاهراً لها مستولياً عليها ، وتتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول .. يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد . لقد انطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الادراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم .. هؤلاء هم أهل النار (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة) .

أصحاب المشأمة . أي أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس . عليهم نار مُؤصَدة .. أي مغلقة .. أي أبوابها مغلقة عليهم . وهم في العذاب محبوسون .. لايخرجون منها .. وهل أعسر من جهنم ؟ وإنها لهي العسرى .

لقد عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر .. (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، ولهم عذاب عظيم) .. وهي النهاية الطبيعية للكفر العنيد الذي لايستجيب للنذير ، والذي يستوي عنده الانذار وعدم الانذار كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد .

إنها آيات القرآن تنذر من جهنم ونارها لعلّ القلوب الغافلة تفيق قبل أن يواجهها

العذاب . (فأنذرتكم ناراً تلظى) . . هذه النـــار المستعرة . . وهل بعد الصلي في النار شقوة . .

وقد وصف النبي ﷺ بأحاديثه الشريفة كيف يتعذب أهل النار في النار :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتي بفرس يجعل كل خطـــو منه أقصى بصره ، فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، كلـــما حصدوا عادَ كما كان ، فقال : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائةِ ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، ثم أتى على قوم ترضَخ رؤوسهم بالصّخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يُفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : ياجبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة ، ثم أتى على قوم على أدبارهم رقاع ،وعلى أقبالهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزّقّوم ورضف جهنم، قال :ماهؤلاء ياجبريل قال :هؤلاء الذين لايؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله، وما الله بظلام للعبيد، ثم أتى على رجلٍ قد جمع حزمة عظيمة لايستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها، قال ياجبريل ماهذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة الناس لايستطيع أداءها وهو يريد أن يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تُقرّض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لايفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : ياجبريل ماهؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ، ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثورٌ عظيم فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع ، قال : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع ، ثم أتى على وادٍ فوجد ريحاً طيّبة ووجد ريح مسك مع صوت ، فقال : ماهذا ؟ قال : صوت الجنة ، تقول يارب ائتنى بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثر غرسي وحريري وسندسي واستبرقي وعبقريّي ومَرجـــاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي وفواكهي وعسلي ومائي ولبني وخمري ، ائتني بما وعدتني ، قال :

لكَ كلّ مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي،وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، فهو آمن ، ومن سألني أعطيته ، ومن أقرضني جزيته ، ومن توكل عليّ كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف لميعادي ، قد أفلح المؤمنون ، تبارك الله أحسن الخالقين ، فقالت : قد رضيت ، ثم أتى على واد فسمع صوتا منكراً ، فقال : ياجبريل ، ماهذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم ، تقول : يارب ائتني بأهلي وبما وعدتني ،فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وغسليني ، وقد بعُد قعري ، واشتد حري ، ائتني بما وعدتني ، قال: لك كل مشرك ومشركة ، وخبيث وخبيثة ،وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت :قد رضيت[١])

عن أبي سعيد رضي عنه عن النبي ﷺ قال : (ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاقبل أن يبلغ قعره[٢]) وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : في قوله (سأرهقه صعودا) قال : (جبل من نار يكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده عليه ذابت ، فاذا رفعها عادت ، واذا وضع رجله عليه ذابت ، فاذا رفعها عادت ، يصعد سبعين خريفاً ، ثم يهوى كذلك[٣])

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعوذوا بالله من جُب الحزن أو وادي الحزن) قيل : يارسول الله، وما جب الحزن أو وادي الحزن ؟ قال (واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة ، أعده الله للقراء المرائين[٤])

وعن أنس عن النبي ﷺ قال ، (الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة

---

(١) رواه البزار ، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية ــ أو غيره ــ عن ابي هريرة « الترغيب والترهيب ٥٢٥٢ » .

(٢) رواه احمد ، والترمذي الا انه قال : « واد بين جبلين يهوي فيه الكافر سبعين خريفا قبل ان يبلغ قعره » ورواه ابن حبان في صحيحه بنحو رواية الترمذي ، والحاكم ، وقال صحيح الاسناد.

(٣) رواه احمد والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه البيهقي باسناد حسن .

الأوثان . فيقولون يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم: ليس من علم كمن لا يعلم[١])

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (ثلاثة لايدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة) قيل : وما نهر الغوطة؟ قال : (نهر يجري من فروج المومسات[٢]، يؤذي أهل النار ريح فروجهن[٣])

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شرب الخمر لم يرضى الله عنه أربعين ليلة ، فإن مات مات كافرا ، فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال). قيل : يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : (صديد أهل النار[٤])

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . . ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها . وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا و كذا[٥])

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب[٦])

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا، فيطيف به أهل النار فيقولون:

---

(١) رواه الطبراني وابو نعيم .

(٢) المومسات : هن الزانيات .

(٣) رواه احمد وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه أحمد باسناد حسن .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه مسلم .

مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه[1])

إنها آيات القرآن تنذر من جهنم ونارها لعل القلوب الغافلة تفيق قبل أن يواجهها العذاب (فأنذرتكم ناراً تلظى) .. هذه النار المستعرة .. وهل بعد الصلى في النار شقوة (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ..) ليس بالبعيد .. فجهنم تنتظركم وتترصد لكم على النحو الذي رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب ! وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) ..

وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب ! وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم . حتى ليتمنى الكائن الانساني أن ينعدم ، ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد . .

إنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة . وإنه لبكاء في الآخرة . وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون .. (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) ..

عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ — أنه قال : (والذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا) قالوا : وما رأيت يارسول الله ؟ قال : (رأيت الجنة والنار[2])

روى عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بقوم وهم يضحكون فقال : (تضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم) قال : فمارئي أحد منهم ضاحكا حتى مات ، قال : ونزلت فيهم : (نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم[3])

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم وابو يعلى .

(٣) رواه البزار وليس في اسناده من ترك ولا اتهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ـ أنه خطب فقال : (لا تنسوا العظيمتين : الجنة والنار) ثم بكى أو بلّ لحيته ، ثم قال : (والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم من أمر الآخرة لمشيتم إلى الصعيد ولحثيتم على رؤوسكم التراب[1])

قال محمد بن كعب : (لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا : يقولون : (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) .. فيقول الله تعالى مجيباً لهم : (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) .. ثم يقولون : (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) . فيقولون : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) .

ثم يقولون : (ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوماً ضالين ،ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) . فيجيبهم الله تعالى : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) .. فلا يتكلمون بعدها أبداً وذلك غاية شدة العذاب[2] .

٣ ـ أحوال الناس في جهنم

يقول الله سبحانه : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما) .

هذه جهنم ، مشهد وراء مشهد ، مشهد مؤلم مفزع رعيب ، إنها عذاب الله القوي العزيز ، لا يتصور هذا العذاب إلا من ذاقه ـ والعياذ بالله ـ (يومئذ لا يعذب عذابه

---

(١) رواه ابو يعلى .

(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص : ٥١٨ .

أحد ولا يوثق وثاقه أحد) .. فأهون العذاب كما يصوره النبي ﷺ بقوله : (إن أهون أهل النـــار عذاباً رجلٌ في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم[1]) .

وقوله ﷺ (إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشرا كان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النار عذاباً رجل منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النار إلى كعبيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النـار إلى ركبتيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من قد اغتمر[2]) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النـار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه[3]) .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته[4]) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا [من أهل النار] فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيتَ خيراً قط ؟ هل مرَّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيـا من أهل الجنة ، فيصبـغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرَّ بك من شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط[5]) .

---

(١) رواه البخاري والثاني لفظ مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد والبزار ورواته رواه الصحيح .

« ٣ ، ٤ ، ٥ » رواه مسلم .

إنه الهول .. فكيف بمن (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها) .. إنه مشهد شاخص متكرر . يشخص له الخيال ، ولا ينصرف عنه ! إنه الهول . وللهول جاذبية آسرة قاهرة !

إن القرآن يرسمه مشهداً عنيفاً مفزعاً (كلما نضجت جلودهم) ويرسمه عجيباً خارقاً للمألوف (بدلناهم جلوداً غيرها) .. ذلك جزاء الكفر — وقد تهيأت أسباب الإيمان — وهو مقصود . وهو جزاء وفاق .

السعير المتأجج . الجلود الناضجة المشوية المعذبة . كلما نضجت بدلت . ليعود الاحتراق من جديد . ويعود الألم من جديد ، إنه مشهد مكروب ملهوف . مشهد أولئك الكافرين حين تكون النار ثيابهم ، وتسيل جلودهم ولحومهم (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها — من غم — أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) .

إنه مشهد عنيف صاخب ، هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يُصهر به ما في البطون والجلود عند صبّه على الرؤوس . وهذه سياط من حديد أحمته النار ، وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ، فيهبُّ الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمّون بالخروج من الغم . وهاهم أولاء يردُّون بعنف . ويسمعون التأنيب ، وذوقوا عذاب الحريق .

هاهي ذي جهنم محيطة بالكافرين (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول:ذوقوا ما كنتم تعملون) .. إنه مشهد مفزع في ذاته ، يصاحبه التقريع المخزي والتأنيب المرير .

فأنى يستعجل من تحيط به جهنم وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ، يصيرون إليها ويأوون . ويا سوءها من مأوى خير منه التشريد (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار

كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) . وهومشهد فيه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) .. فهو التقريع زيادة على الدفع والتعذيب .

ولهم في جهنم مهاد ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم (فبئس المهاد) ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيء . إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار ! أو لهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب

(هدا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) .

ثم مشهد أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت في الدنيا متوادة متحابة . فهي اليوم متناكرة متنابزة .. (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار . قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

هاهم يقتحمون النار فوجاً بعد فوج . وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض (هذا فوج مقتحم معكم) .. فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب في اندفاع وحنق (لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار) .. فهل يسكت المشتومون ؟ كلا إنهم يردّون .. (بل أنتم لا مرحباً بكم) .. فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب . وإذ دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

وإننا لنجدحنق المخدوعين الذين زيّن لهم قرناؤهم وأغروهم (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلاّنا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) ، إنه الحنق العنيف ، والتحرق على الانتقام ، وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين .

إنها جهنم يكتوون فيها ويحترقون وفيها يفتنون (يوم هم على النار يفتنون) ومعه التبكيت المؤلم في الموقف العصيب ، (ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون) .. (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

٤ ــ هيئة أهل النار

إن حديث القيامة هو حديث هذا القرآن المتكرر ، يُذكّر به وينذر ويبشر ، وليستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس ، كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل . يقول الله سبحانه : (هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية).. فهناك يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ، عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترضى العاقبة . ولم تجد إلا الوبال والخسارة ، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً ، فهي عملت لغير الله ، ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها ، ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد. ووجدته في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب. وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء! ومع هذا الذل والرهق والعذاب والألم تصلى ناراً حامية تذوقها وتعانيها يقول الله سبحانه : (إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مَس سقر)

في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سعر تكوى الجلود والأبدان . وهم يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار. وهم يزادون عذاباً بالإيلام النفسي .. (ذوقوا مَس سقر). هؤلاء المجرمون في ضلال وسُعر يُسحبون في النار على وجوههم في مهانة. ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير.

هذه هي جهنم حاضرة معروضة – كما ترون – (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) .. متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار ! وهم يتراوحون بين هذا السائل الآني . إنظروا إنهم يطوفون الآن .

والهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لايبُرد ولا يُروي (وأصحاب الشمال ماأصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لابارد ولا كريم) ..وهناك الظل.. ظل من يحموم .. ظل الدخان اللافح الخانق .. إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل لابارد ولا كريم..فهو ظل ساخن لارَوْح فيه ولابرد، وهو كذلك كزٌ لايمنح ورّاده راحة ولا انعاشاً .. هذا الشظف كله جزاء وفاق . . (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) .. وما آلم الشظف للمترفين .

إنه جزاء وفاق ،وإننا لنكاد نسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ليأخذوا طريقهم إلى العذاب ، في تأنيب مرير وإيلام عسير :(انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شُعب.لاظليل ولا يغني من اللهب.إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالت صفر . ويل يومئذ للمكذبين) .

ذهبوا طُلقاء بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين؟ إنه انطلاقٌ خيرٌ منه الارتهان .فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود . إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنة في ثلاث شُعب . ولكنه ظل خيرٌ منه الوهج .. إنه ظل خانق حار لافح. وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهكم..انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين!وتعرفون هذه التي تنطلقون إليها .. إلى جهنم .. فالشرر يتتابع في حجم البيت .. فإذا تتابع بَدا كأنه جمالت صُفر ترتع هنا وترتع هناك!وهذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر ؟

تغشاهم وتركبهم ، وتكربهم الذلة (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

الآية ترسم صوره حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجـــه المكروب المأخوذ المرعوب . كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعاً غشيت بها هذه الوجوه .. وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليـــل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم .

هنالك الخسران الذي مابعده خسران ، خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم وخسران (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين . لهـم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده . ياعباد فاتقون) ..

وهو مشهد رعيب حقاً . مشهد النار في هيئة ظل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار ! إنه مشهد رعيب . يعرض الله لعباده . وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه ، ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبوه .

إن الله طرد الكافرين من رحمته ، وهيأ لهـــم ناراً مسعرة متوقدة ، فهي معدة جاهزة حاضرة .. (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبداً لايجدون ولياً ولا نصيرا ، يوم تُقلّب وجوههم في النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا) .. إنها نار معدة جاهزة . باقين فيها عهداً طويلاً ، لايعلم مداه إلا الله ، ولا نهاية له إلا في علم الله ، حيث يشاء الله . وهم مجردون من كل عون ، محرومون من كل نصير ، فلا أمل في الخلاص من هذا السعير ، بمعونة من ولي ولا نصير . . يوم تقلّب وجوههم في النار . والنار تغشاهم من كل جهة ، والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النكال .. يقولون : ياليتنا .. وهي أمنية ضائعة ، لا موضع لها ، ولا استجابة ، فقد فات الأوان . إنما هي الحسرة على ما كان

إنها البغتة التي تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتحرمهم مهلة الأنظار والتأجيل ، . (لو يعلم الذين كفروا حين لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) .

ها هي النار حميت واحمرت . وها هي ذي معدة مهيأة فليبدأ العذاب الأليم .. (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم ،فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ،هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

ها هي ذي الجباه تكوى .. لقد انتهت عملية الكي في الجباه ، فليداروا على الجنوب ها هي ذي الجنوب تكوى .. لقد انتهت هذه فليداروا على الظهور . . ها هي ذي الظهور تكوى .. ثم يتبع ذلك التوذيل والتأنيب .هو بذاته الذي كنزتموه للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب .. ذوقوا كنوزكم .. إنه هو الذي تذوقون منه مَسَّه للجنوب والظهور والجباه ! ألا إنه لمشهد مفزع مروع . هذه هي هيئتهم في النار .. (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) فلهم من نار جهنم من تحتهم فراش ، يدعوه — للسخرية— مهاداً ،وما هو مَهْد ولا لين ولا مريح. ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم !

إنها الاهانة والتحقير في العذاب . لا مجرد العذاب .. (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون) .

بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ ولقد خلعوا من أنفسهم شارة التكريم . وبعد السحب والجر في هذا العذاب ، وفي هذه المهانة ينتهي بهم المطاف الى ماء حار والى نار .. (في الحميم ثم في النار يسجرون) .. أي يربطون ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أي يملأ لهم المكان ماء حاراً وناراً موقدة . والى هذا ينتهون . وبينما هم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والتوذيل

والاحراج والاعنات (ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟) .. فيجيبون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته ، وهو يائس حسير .. « قالوا : ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً) .. لقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل . ويوجه إليهم التأنيب : (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) ..

يا مغيث ! وأين كان السحب في السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟ يبدو أنها كانت مقدمة للدخول في جهنم للخلود .

إن أغلال العقل والقلب جزاؤها الأغلال في الأعناق يوم القيامة (وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق ، والجزاء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا في الدنيا فهم في الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التي عاشوها معطلي الفكر والشعور والاحساس .

لذلك أعدّ الله للكافرين جهنم بأغلالها وسلاسلها .. (إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالاً وسعيرا) .

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، وناراً تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين . وقد زاد الله عذاب الكافرين بزيادة حجم أجسامهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع[1]) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

وعنه رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قال : (ضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء ، ومقعده من النار كما بين قُديد ومكة ، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار[1])[2] .

وفي رواية للترمذي قال : (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة[3]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ في قوله تعالى .. (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) قال : (يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً ، ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من نور يتلألأ ، فينطلق الى أصحابه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم آتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا ، حتى يأتيهم ، فيقول لهم : أبشروا لكل رجل منكم مثلُ هذا ، قال : وأما الكافر فيسودُّ وجهه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً في صورة آدم ، ويلبس تاجاً من نار ، فيراه أصحابه ، فيقولون : نعوذ بالله من شرّ هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا[4]) .

عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سَعَةُ جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل والله ، والله ماتدري ! إن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً تجري فيه أودية القيح والدم ، قلت أنهار ؟ قال : بل أودية[5]) .

ومن ظلال هـذه المشاهد تنطلق صيحة من صيحات الانذار ، وهـزة للنائمين السادرين في الخمـار (ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذاباً

---

(١) الجبار : ملك اليمين له ذراع معروف المقدار كذا قال ابن حبان وغيره .

(٢) رواه أحمد واللفظ له ، ومسلم ولفظه : قال : « ضرس الكافر ـ أو ناب الكافر ـ مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » .

(٣) وقال في هذه : حديث حسن غريب صحيح .

(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(٥) رواه أحمد باسناد صحيح والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

قريباً . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) .

إن الفرصة ما تزال سانحة . فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا قبل أن تكون جهنم مرصاداً ومآبا .. وهذا الانذار الذي يوقظ من الخمار : (إنا أنذرناكم عذاباً قريبا) .. ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم وتترصد لكم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب .

وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) .. وما يقولها إلا هو ضائق مكروب . وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الانساني أن ينعدم . ويصير الى عنصر مهمل زهيـــد . ويرى هـذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد .

من هناك .. من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور يعطي الرسول ﷺ هذه المشاهد لعلّ الانسان يراجع نفسه ويتخذ إلى ربه مآبا :

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (وهم فيها كالحون) قال : (تشويه النار فتقلصُ شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرّته (١))

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيهـا السفن لجرت) رواه ابن ماجه وابو يعلى ، ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في خدودهم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فيسيل – يعني الدم – فيقرح العيون (٢)) .

---

(١) رواه أحمد والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح غريب ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد.

(٢) وفي اسنادهما يزيد الرقاشي ، وبقية رواة ابن ماجه ثقات احتج بهم البخاري ومسلم .

عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفحة ، فلم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب(١)) .

وعن النبي ﷺ قال : (يعظمُ أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أُذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غِلظَ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد (٢)) .

قال الحافظ عبد العظيم : وقد ورد أن من هذه الأمة من يعظم في النار كما يعظم فيها الكفار ؛ فروى ابن ماجة ، والحاكم وغيرهما ، من حديث عبد الله بن قيس قال : كنت عند أبي برْدة ذات ليلة ، فدخل علينا الحارث بن أقيش رضي الله عنه ، فحدثنا الحارث ليلتئذ أن رسول الله ﷺ قال : (إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مُضر ، وإن من أمتي من يعظـّم للنار حتى يكون أحد زواياها (٣)) .

٥ ــ طعام أهل النار

لقد كان الانذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الانذار بيوم الجمع « وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

يوم يجمع الله ماتفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد (فريق في الجنة وفريق في السعير) بحسب عملهم في دار العمل في هذه الأرض . في فترة هذه الحياة الدنيا . حيث يُلقى أهل النار في النار . . يلقى أهل جهنم في جهنم ليذوقوا العذاب . . (إن عذاب جهنم كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومُقاما)

---

(١) رواه الطبراني في الاوسط ، والبيهقي مرفوعا ، ورواه غيرهما موقوفا عليه ، وهو أصح .

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير والاوسط ، واسناده قريب من الحسن .

(٣) اللفظ لابن ماجه ، واسناده جيد ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

يوم تفتح جهنم فاها ، تهم أن تلتهم ، باسطة أيديها تهمّ أن تقبض على القريب والبعيد . إن عذابها ملازماً لايتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقيله . فهذا مايجعله مروعاً مخيفاً شنيعاً .. وهل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه الانسان ويقيم . وأين الاستقرار وهي النار ؟ وأين المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار ! (هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) تذوقها وتعانيها .. وتسقى من عين آنية . حارة بالغة الحرارة . وطعامهم شجر من نار جهنم (تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع لايُسمن ولا يغني من جوع) .

فهذا لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان لاتُسمن ولا تغني من جوع . وواضـــح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة . إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى مايملك تصوره من الألم الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية ، ومن البرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة ! والتغذي بالطعـام الذي لاتقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك لانفع فيه ولا غناء .

من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد . وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله ! . فكيف بن طعامهم الضريع والزقوم التي يتكرر ذكرها في القرآن .. (أذلك خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) .

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ؟ ولكنها مفزعة ولا شك . ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كان طلعها يأكلونه . ويملأون منه البطون .

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظـالمين . فحين سمعوا باسمها سخروا وقالوا : كيف تنبت شجرة في الجحيم ولا تحترق . فإذا شاكت حلوقهم وهي كرؤوس الشياطين – وحرّقت بطونهم – وهي في أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم! وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء اللهيب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخناً مشوباً غير خالص ، وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم . ويا له من نزل ! ويا له من معاد .. (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم)

فالجوع طاغ والمحنة غالبة وليس لهم إلا شجرة الزقوم (ثم إنـكم أيهـا الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون) ..

ولا يدري أحـــد ماشجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به من أن طلعها كرؤوس الشياطين. ورؤوس الشياطين لم يرها أحد، ولكنها تلقي في الحس ماتلقيه ! على أن لفظ الزقوم نفسه يصور بجرسه ملمساً خشناً ، شائـكا مدبباً يشوك الأكف بله الحلوق، ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون .

إنها نار الله تتلظى وتتحرق (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) .. تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعاً .. وهي غول مفزعة. ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب عن إرادة وقصد (تدعوا من أدبر وتولى) تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعـــوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى . ولقد كان من قبل مشغولاً عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدي بما في الأرض كله منها .

إنها مشاهـد عنيفة لتلمس في حسنا الألم لنخاف ونستقيم .. (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذُق إنك أنت العزيز الكريم . إن هـذا ما كنتم بـــه تمترون) ..

إنه مشهد مفزع مرعب مخيف .. إن هذا الطعام مثل دردري الزيت المغلي – وهو المهل – يغلي في البطون كغلي الحميم . وهناك هذا الأثيم . هذا المتعالي على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالي يصدر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف يليق بمقامه الكريم .. خذوه أخذاً، واعتلوه عتلا ، وشدوه في إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هوادة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلي الذي يشوي ويكوي . ومع الشد والجذب والدفع والعتل ، والكي والشي .. التأنيب والترذيل .. وهذا جزاء العزيز الكريم في غير ما عزّة ولا كرامة . إنه الأخذ والعتل والصب والكي والتأنيب والخزي .

إنه العذاب الأليم الأليم . عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .. فقال رسول الله ﷺ (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه[1])

إنه عذاب الجبار القهار القوي المتين .. لقد أعدّ لهم ما لم يتصوروه .. (ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلا) ، خلّ بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل . كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين ، والمكذبون بشر من البشر ، والذي يتهددهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض بـ .. (كن) ولا تزيد .

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من الخلائق ، ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلا . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار !فهي قليل أياً كان

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه الا انه قال « فكيف بمن ليس له طعام غيره » ورواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح ، وروي موقوفا على ابن عباس .

الأمد ، ولو مضوا من هذه الحياة .. ثم إلى عذاب الله .. (إن لدينا أنكالاً وجحيما وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً) .

والأنكال ـ هي القيود ـ والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم ، كلها جزاء مناسب ، إن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحيماً تجمعهم وتصليهم ، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق ، وعذاباً أليماً في يوم مخيف .

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (طعامـــاً ذا غصة) قال : (شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج[1]) .

إنها صور حسية عنيفة من العذاب تتناسب مع الناس الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم) ، فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ ، والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء التي كانت تحشى وتلتهم الأكل كالأنعام : (وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم) .

٦ ـ شراب أهل النار

إن الذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ولا تحس بحكمة الخلق والاعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب في هذه الدنيا . وحتى العبر التي تمر في هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً ، والقيامة تقترب : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأتِ لا تكلّمُ نفس إلا باذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد) .

يرتسم أمامنا مشهد التجمع يشمل الخلق جميعاً . على غير إرادة منهم ، إنما هو

(١) رواه الحاكم موقوفا ، وقال صحيح الاسناد .

سوق الجميع سوقاً إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ، والصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه ، ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع فمنهم شقي في النار مكروبي الأنفاس لهم فيها زفير وشهيق من الحر والكتمة والضيق .

إنهم لا يخشون يوماً يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء .. (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً) .

إنه مشهد يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الخامدة ، ماذا ينتظرهم ، إنها السعير حاضرة مهيأة ، إنه مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ! فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة . تراهم من بعيد ! فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهي تتحرق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظاً منهم ، وهي تتميز من النقمة ، وهم إليها في الطريق .

مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب ! ثم هاهم أولاء قد وصلوا . فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء . يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم . بل ألقوا إليها إلقاء . ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم الى أرجلهم في السلاسل . وألقوا في مكان منها ضيق، يزيدهم كربة وضيقاً ، ويعجزهم عن التفلت والتململ ، ثم هاهم أولاء يائسون من الخلاص ، مكروبون في السعير . فراحوا يدعون الى الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء . فالهلاك اليوم أمنية المتمني ، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب ، وكيف وشرابهم يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء : (وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم) .

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصاداً للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون

إليها فإذا هي معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم (إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميماً وغساقا جزاء وفاقا) .

فهم يشربون المـــاء الساخن يشوي الحلوق والبطون . فهذا هو البَرد ! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل فهـــذا هو الشراب . وهو يوافق ما أسلفوا وما قدموا ، انهم كانوا لا يرجون حسابا ولا يتوقعون مآبا ، فمآبهم يوم القيامة هو جهنم (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) .

أعددناها وأحضرناها ، فهي لا تحتاج الى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمنـــاً لإعدادهـا . وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلا سبيل إلى الهرب ، ولا أمل في النجاة والافلات . ولا مطمع في منفذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيـه استرواح . فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أُغيثوا بماء كدردري الزيت المغلي في قـول، وكالصديد الساخن في قول ! يشوي الوجوه بالقرب منها . فكيف بالحلوق والبطون التي تتجرعه.

عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في قوله كالمهل قال : كعكر الزيت ، فإذا قرّب الى وجهه سقطت فروة وجهه فيه [1]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الحميم ليصبُّ على رؤوسهم فينفذ الحميم ، حتى يخلص الى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرُق من قدميه ، وهـو الصَّهر ثم يعاد كما كان [2]) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال : يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدنيَ منه شوى وجهه ووقعت فروة

---

(١) رواه أحمد والترمذي . قال الحافظ : قد رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الاسناد ..

(٢) رواه الترمذي والبيهقي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

مه ، فاذا شرب قطّع أمعاءه حتى يخرج من دُبره ، قال الله عز وجل : (وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم) ويقول (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب[1]) .

لقد أخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم : شراب ساخن يشوي الحلوق والبطون ، وعذاب أليم بسبب كفرهم : (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) .

وإن الشوك الخشن الذي يأكلونه في جهنم ليدفع الى الماء لتسليك الحلوق وري البطون ! فطعامهم ذي غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطّعت مافي بطونهم ! وإنهم لشاربون (فشاربون عليه من الحميم) الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ . (فشاربون شرب الهيم) وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء .

إنه الشراب ، ليس شراب ارتواء إنما شراب للحريق والعذاب (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه . ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) .. (فليذوقوه حميم وغساق) .

مشهد عجيب .. إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، من ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم . يسقاه بعنف فتجرعه غصباً وكرهاً ، ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحها من خلال الكلمات !

---

(١) رواه احمد والترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن دلوا من غساق[1] يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا[2]) .

ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ .. (هـــذا نزلهم يوم الدين) والنزل للراحة والاستقرار . ولكن نزلهم هذا لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا يَشكّون فيه ويتساءلون عنه . إنه مشهد عجيب للجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروع الفظيع .

وإن الله سبحانه يدعو الناس للاستجابة لمنهجه قبل أن يفجأهم هذا المصير (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ، مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير) .

استجيبوا لربكم قبل أن يفجأكم المصير فلا تجدوا ملجأ يقيكم ، ولا نصير ينكر مصيركم الأليم . هناك يفيق الانسان كما يفيق المخمور ، ويفتح عينيه بعد الغشي والكلال . فها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قِبَل النار ، ملؤه الرجاء والاستجداء (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

---

(١) هو المذكور في القرآن (فليذوقوه حميم وغساق) (لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا ، الا حميما وغساقا) وقد اختلف في معناه ، فقيل : هو ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه ، قاله ابن عباس ، وقيل هو صديد اهل النار ، قاله ابراهيم وقتاده ، وعطية وعكرمة ، وقال كعب : هو عين في جهنم تسيل اليها حمة كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غير ذلك فيستنقع فيؤتى بالادمي فيغمس فيها غمسة واحدة ، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه في عقبيه وكعبيه ، فيجر لحمه كما يجر الرجل ثوبه ، وقال عبد الله بن عمرو : الغساق : القيح الغليظ ، لو أن قطرة منه تهراق في المغرب لانتنت أهل المشرق ، ولو تهراق في المشرق لانتنت أهل المغرب .

(٢) رواه الترمذي « قال الحافظ » : رواه الحاكم وغيره من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث به ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

قالوا : إن الله حرمها على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا) .

هكذا يجيب أهل الجنة جواباً ملؤه التذكير الأليم المرير ، ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطلق رب العزة والجلالة ، وصاحب الحكم : (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يجحدون) .

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

يقول الامام المحاسبي (.. فتوهم كبدك والنار تداخل فيها ، وأنت تنادي فلا ترحم ، وتبكي وتعطى الندم ، إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك .

فتوهم نفسك وقد طال فيها مكثك وأليم العذاب ، فبلغت ، غاية الكرب ، واشتد بك العطش فذكرت الشراب في الدنيا ففزعت إلى الجحيم ، فتناولت الاناء من يد الخازن الموكل بعذابك ، فلما أخذته نشّت كفك من تحته ، وتفسّخت لحرارته ، وهيج حريقه ، ثم قرّبته إلى فيك فشوى وجهك ، ثم تجرعته فسلخ حلقك ، ثم وصل الى جوفك فقطع أمعاءك ، فناديتَ بالويل والثبور ، وذكرت شراب الدنيا وبرده ولذته ، ثم أقلعت الحريق ، فبادرت إلى حياط الحميم لتبرد بها ، كما تعودت في الدنيا الاغتسال والانغماس في الماء إذا اشتد عليك الحر فلما اغتمست في الحميم تسلخ من قرنك إلى قدمك ، فبادرت الى النار رجاء أن تكون هي أهون عليك ، ثم اشتد عليك حريق النار فرجعت الى الحميم وأنت تطوف بينها وبين حميم آن ، وهو الذي قد انتهى حره وتطلب الروح فلا روح بين الحميم وبين النار ، تطلب الروح فلا روح أبداً . فلما اشتد بك الكرب والعطش وبلغ منك المجهود ذكرت الجنان فهاجت غصة من فؤادك إلى حلقك أسفاً على جوار الله عز وجل ، وحزناً على نعيم الجنة ، ثم ذكرت شرابها وبرد

مائها وطيب عيشها ، فتقطع قلبك حسرة لحرمـــان ذلك ، ثم ذكرت أن فيها بعض القرابـة من أب أو أم أو أخ ، وغيرهم من القرابة فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق قلق : ياأمـاه أو ياأبتاه أو ياأخاه أو ياخالاه أو ياعماه أو ياأختي ، شربة ماء ، فأجابوك بالخيبة فتقطع قلبك حسرة بما خيبوا من أملك ، وبما رأيت من غضبهم عليك لغضب ربك عز وجل ، ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبى أن يردك الى الدنيا ، فمكث عنك دهراً طويلا لايجيبك هواناً بك وإن صوتك عنده ممقوت ، وجاهك عنده ساقط ، ثم ناداك بالخيبة منه أن (اخسئوا فيها ولا تكلمون) ، فلما سمعت نداءه ضاقت نفسك في صدرك وبقيت قلقاً تزفر لاتطيق الكلام ولا يخرج منك نفس ، ثم أراد أن يزيدك إياساً وحسرة ، فأطبق أبواب النار عليك وعلى أعدائه فيها. فما ظنك إن لم يعف عنك ، وقد سمعت رجوف بابها قد أغلق ؟

فيا إياسك وإياس سكان جهنم حين سمعوا وَقْعَ أبوابها تطبق عليهم فعلموا عند ذلك أن الله عز وجل إنما أطبقها لئلا يخرج منها أحدٌ أبداً ،فتقطعت قلوبهم إياساً وانقطع الرجاء منهم ألا فرج أبدا ولا مخرج منها ولا محيص لهم من عذاب الله عز وجل أبداً خلودٌ فلا موت ، وعذاب لازوال له عن أبدانهم ، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبدا، أحزان لا تنقضي ، وغموم لا تنفد ، وسقم لا يبرأ ، وقيود لاتحل ، وأغلال لا تفك أبدا ، وعطش لا يُرْوَوْن بعده أبدا،وكرب لايهدأ أبدا،وجوع لا يشبعون بعده أبدا إلا بالزقوم ينشب في حلوقهم فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم ، وحسرة فوت رضوان الله عز وجل في قلوبهم، وكمد حرمان جوار الله عز وجل يتردد في صدورهم ، لا يرحم بكاؤهم ، ولا يجاب دعاؤهم ، ولا يغاثون عن تضرعهم ، ولا تقبل توبتهم ،فهم في عذاب دائم وهوان لاينقطع ،فمثل نفسك بهذا الوصف إن لم يعف عنك.

فلو رأيت المعذبين في خلقهم وقـد أكلت النار لحومهم ومحت محاسن وجوههم واندرس تخطيطهم ،فبقيت العظام مواصلة محترقة مسودة وقد قلقوا واضطربوا في قيودهم

وأغلالهم وهم ينادون بالويـل والثبور ، ويصطرخون بالبكاء والعويل، إذا لذاب قلبك فزعاً من سوء خَلقهم وتضعّفت من رائحة نتنهم ولما بقي روحك في بدنك من شدة وهج أبدانهم وحرارة أنفاسهم . فكيف بك إن نظرت إلى نفسك فيها وأنت أحدهم ، وقد زال من قلبك الأمل والرجاء ولزمه القنوط والإياس وعطفت على بدنك فتقحمت على الحدقتين فسمعتَ تفضيضها انتقامـــاً وبدلاً من نظرك الى مــــا لايحب ولا يرضى ، ودخلت النار في مسامعك فتسمع لهـا فيه قصيفاً وجلبة ، والتحفت عليك فنفضت منك العظام ودوبت اللحام ، واطلعت الى الجوف فأكلت الكبد والأحشاء فغلبت على قلبك الحسرة والندامة والتأسف .

فتوهم ذلك بعقل فارغ ، وقد هاجت منك رحمة لضعفك ، وارجـع عمـا يكره مولاك وترضى عسى أن يرضى عنك وأعذْ به بعقلك واستقله بقلك عثراتك ، وابك من خشيته عسى أن يرحمك ويقيل عثراتك ، فان الخطر عظـيم وان البدن ضعيف والموت منك قريب ، والله جل جلاله مع ذلك مطلع يراك ، وناظر لا يخفى عليه منك سر ولا علانية ، فاحذر نظره بالمقت والبغضة والغضب والقـلاء ، وأنت لاتشعر فرحاً أو قرير العين ،فاحذر الله عزّ وجل وخفه واستحي منه وأجلّه،ولا تستخف بنظره ولا تتهاون باطلاعه ، وأجلّ مقامه عليك وعلمه بك وافرقه واخشه قبل أن يأخذك بغتة ، وليرَ أثر مصيبة مخالفتك له ليعلم ما قد بلغ منك خلافه ، فيعظم حزنك ويشتد غمك بمخالفته ، فان علم ذلك منك صفح عنك وعفى عنك،فلا تتعرض لله عز وجل فانه لا طاقة لك بغضبه ولا قوة لعذابه ، ولا صبر لك على عقابه ، ولا صبر عندك عن جواره فتدارك نفسك قبل لقائه ، فكأنك بالموت قد نزل بك بغتة الموت فكأنه قد نزل فتوهم ماوصفتُ لك فإنما وصفتُ بعض الجمل،فتوهم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيتَ على نفسك وما استوجبت بجناياتك ، وفكر في مصيبتك في دينك ، وليرَ الله عز وجل عليك أثر المصيبة لعـله أن يرحمك فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته[1])

(1) التوهم ص ٢٥ .

٧ – اغواء .. وتبرؤ .. وعذاب

إنه لا إمهال ولا فكاك ، يوم عصيب تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .. (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) .

إنهم في زحمة الهول ، مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون الى شيء رافعين رؤوسهم لاعن ارادة ولكنها مشدودة لايملكون لهاحراكاً . يمتد بصرهم الى ما يشاهدون من الرعب . فلا يطوف ولا يرتد اليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء .

إن الله يؤخر الناس حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هـذا الرعب المذهل . هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله اليه ، والذي ينتظرهم بعد الامهال هناك . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا فكاك يومئذ ولا اعتذار (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخّرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ! أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) .

هناك الكل مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم . إنما هم في العراء أمام الواحد القهار : (يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) ثم ترى المجرمين (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) .

مشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرونين في الوثاق ، يمرون صفاً وراء صف . مشهد مذل . ويضاف الى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب . وهي في ذات الوقت قذرة سوداء . ففيها الذل والتحقير وفيها الايحاء بشدة

الاشتعال بمجرد قربهم من النار . وتغشى وجوههم النار . مشهد العذاب المذل المتلظى المشتعل جزاء المكر والاستكبار (ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب) أولئك لو مدّوا بأبصارهم الى يوم يقفون بين يدي الله الواحد ! لو تطلعوا ببصائرهم الى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين ! (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الاسباب . وقال الذين اتّبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار) . لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين . ورأوا العذاب . فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والاسباب ، وانشغل كلٌ بنفسه تابعاً كان أم متبوعاً . وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها ، وعجزت عن وقاية نفسها فضلًا على وقاية تابعيها .وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة،وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب . وتبدى الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة . وتمنوا لو يردون لهم الجميل ! لو يعودون الى الأرض فيتبرؤوا من تبعيتهم لتلك القيـــادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها ، التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب !

إنه مشهد مؤثر : مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين . بين المحبين والمحبوبين . وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) .

إلى النار ، انضموا الى زملائكم وأوليائكم من الجن والانس (قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النــار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً . قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم : فما

كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ، هنا في النار ، أليس ابليس هو الذي عصى ربه ؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذيأغوى من أغوى من أبنائه ؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ؟.. فادخلوا إذن جميعاً ، ادخلوا سابقين ولاحقين ، فكلكم أولياء ، وكلكم سواء !.

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملي متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها (كلما دخلت أمة لعنت أختها) ، فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولي لمولاه .

وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال ، وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم . ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويطلب له من (ربنا) شر الجزاء . فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ! لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب ، إنه مشهد ساخر أليم .

ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب .. (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلجَ الجمل في في سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين) .

مشهد الجمل تجاه ثقب الابرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ — وحينئذ فقط — أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم — وقد فات الأوان — وأن يدخلوا الى جنات النعيم ! أما الآن ، وإلى أن يلجَ الجمل في سُم الخياط ، فهم هنا في النار ، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا ، وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء .

هناك وقد برزوا لله جميعاً . الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين

(وبرزوا لله جميعاً) ، برزوا جميعاً مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائماً . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسّون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق .

والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم (إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) ، وقد اتبعناكم فانتهينا الى هذا المصير الأليم .

لقد حقّ العذاب ، ولا رادّ له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان فيه العذاب يجدي فيرد الضالين الى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ولم يعد هناك مفر ولا محيص .. (قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) .. لقد قضي الأمر وانتهى الجدل ، فالنار هي الرفد والعطاء فهي وِرْدهم ، ويا بئساه من ورد (بئس الورد المورود) ، ورْد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، انما يشوي البطون والقلوب ، أولئك المبعودون المطرودون لهم اللعنة (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا الى الآخرة ونعيمها المقيم .

٨ ــ حسرة وألم

إنها حلقات عذاب رهيبة لاهثة مكروبة ، فاذا انتهت الحلقة بدأ الظالمون يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً وهكذا . فها هي الجحيم وقد سُعرت ، (واذا الجحيم سُعرت) ، حيث تتوقد الجحيم وتتسعر ، ويزاد لهيبها ووهجها وحرارتها ، فعندما تقع أحداث القيامة الهائلة ، في كيان الكون . عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب ، (علمت نفس ما أحضرت) .

كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل مامعها ومالها وما عليها، تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها ، تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئاً مما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه ، تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها ، معهود في حياتها أو تصورها وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها .وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء . ولم يبق إلا وجه الله الكريم ، الذي لا يتحول ولا يتبدل ، فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده سبحانه ، عندما يتحول الكون كله ويتبدل! فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله في ذلك اليوم العظيم ،(فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين. وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) .

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم . بهذا التنكير والتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الانس والجن ، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار ، فما أعجب حالهم ، لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم .

وأنذرهم يوم الحسرة،يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم محض للحسرة لاشيء فيه سواها،فهي الغالبة على جوه،البارزة فيه . أنذرهم هذا اليوم الذي لاتنفع فيه الحسرات. أنذرهم ذلك اليوم الذي لاشك فيه . أنذرهم العذاب الدائم،أنذرهم عذاب الخلود. (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون، لا يفتر عنهم وهم فيه مبسلون) . وهو عذاب دائم،وفي درجة شديدة عصيبة،لا يفتر لحظة،ولا يبرد هنيهة. ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص،ولا كوة من رجاء بعيد. فهم يائسون قانطون. ثم تناوح في الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) . إنها صيحة

متناوحة من بُعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغيث . فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذي يريح.وحسب المنايا أن يكن أمانيا ، وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق،واننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب ، وأجساماً تجاوز الألم بها حدّ الطاقة ،فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة،(يامالك ليقضي علينا ربك).والجواب يجيء في تيئيس وتخذيل،وبلا رعاية ولا اهتمام . (قال : إنكم ماكثون). فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ،انكم ماكثون ، (إنه من يأت ربه مجرماً فان لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حيّ فيتمتع إنما هو العذاب الذي لا ينتهي الى موت ولا ينتهي الى حياة . فهم متروكون في جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب (فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون).(والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يُقضى عليهم فيموتوا ،ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) .

نرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار، فلا هذه ولا تلك.حتى الرحمة بالموت لاتنال ، ونسمع صوت غليظ محشرج مختلط الاصداء ، متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين في جهنم (وهم يصطرخون فيها) ، ولنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل).إنه الانابة والاعتراف والندم إذن . ولكن بعد فوات الأوان .

فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر .

إنه العذاب الشديد ، فلا مراجعة في الحكم ، ولا مجال لتغييرفيه أو تعديل . وقد قضي الأمر (إن الله قد حكم بين العباد) ، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً

من حكم الله . وحين يدرك هؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، إتجه هؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع وفي ضراعة . إنهم يستغيثون حراس جهنم ، ليدعوا ربهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) .

.. يوماً .. يوماً فقط يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة. فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المعذبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب .

وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار ، (قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ! فادعوا). إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئاً . فتولوا أنتم الدعاء . (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) . لايبلغ ولا يصل ولا ينتهي إلى جواب . إنما هو الاهمال والازدراء .

لقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ،الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين . وانهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون ، حيث يسمعون التقريع والتأنيب . (وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله؟هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود ابليس أجمعون . قالوا : وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فمالنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) .

إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله . ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب. إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب ، فكبكبوا ، واننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام. وصوت الكركبة الناشيء من الكبكبة ، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد كبكب معهم جميع الغاوين . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات

وأنه لا جدوى من توزيع التبعات . فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع . وإذا لم تكن شفاعة فيا مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح مافاتنا فيها . وما هو إلا التمني . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين ، فلا نسمع إلا الويل (ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) .

يقولون ياويلنا ، وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ،ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان . ويقذفون في جهنم قذفاً بلا رفق ولا أناة،وكأنما تحصب بهم حصباً كما تحصب بالنواة . هذه مشاهد مؤلمة ، كلها ملؤها الحسرة والأسى ، فبعد ان اطمأنّ أصحاب الجنة إلى دارهم ، واستيقن أصحاب النار من مصيرهم ، واذا الأولون ينادون الآخرين يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم ، (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ قالوا : نعم ! فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين)،وفي هذا السؤال من السخرية المُرّة مافيه .

هؤلاء الذين يريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه ، وهم بالآخرة كافرون،انهم يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه . وكل ماعداه فهو أعوج .وهو ارادة للعوج . وهذه الارادة تلتقي مع الكفر بالآخرة فما يؤمن بالآخرة أحد ،ويستقين أنه راجع إلى ربه ، ثم يصد عن سبيل الله ، ويحيد عن منهجه وشرعه .

إن الله سبحانه قد أحصى كل شيء احصاء دقيقاً لا يفلت منه حرف (وكل شيء أحصيناه كتابا) ، فلا رجاء في تغيير أو تخفيف انما هي زيادة العذاب (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) .

إن هذه الذكرى سينتفع بها من يخشى ويخاف الله (سيذكر من يخشى) ذلك الذي يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى،

منذ يعلم أن للوجود إلهاً خلقَ فَسوَّى وقدَّر فهدى ، فلن يترك الناس سدى ، ولن يدعهم هملا ، وهو لا بد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى فاذا ذُكر ذكر ، واذا بُصِّر أبصر ، وإذا وعِظَ اعتبر . وكل من يتجنب هذه الذكرى هو الأشقى (ويتجنبها الأشقى) يتجنب الذكرى ، فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو اذن (الأشقى) .. الأشقى اطلاقاً واجمالاً . الأشقى الذي تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهاها . الأشقى في الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الضعيفة ، التي لا تحس حقائق الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بوحياتها العميقة . والذي يعيش قلقاً متكالباً على مافي الأرض كادحاً لهذا الشأن الصغير ! والأشقى في الآخرة بعذابها الذي لا يعرف له مدى (الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيا) .

والنار الكبرى هي نار جهنم . الكبرى بشدتها ، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها . حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ، ولا هو يحيا في أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذي يتطلع صاحبه الى الموت كما يتطلع الى الأمنية الكبرى .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا صار أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار . جيء بالموت ، حتى يُجعل بين الجنة والنار ، فيُذبح ، ثم ينادي منادٍ : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً الى فرحهم وأهل النار حزناً الى حزنهم) .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال : (يُدخلُ الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذنٌ بينهم ، فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، كلٌ خالد فيما هو فيه [1]) .

---

(1) اخرجه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[1] ، فينادي منادٍ ، يا أهل الجنة ، فيشرئبون[2] وينظرون، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي منادٍ ، يا أهل النار : فيشرئبون وينظرون ، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة : خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » وأشار بيده الى الدنيا [3]) .

وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون ، تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم ، فاذا هي عندهم عشية أو ضحاها (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) .

هذه هي : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تافهة ، أفمن أجل عشية أو ضحاها يُضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى !

ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التي لا يرتكبها انسان . يسمع ويرى !

* * *

(١) (كبش أملح) الاملح : المختلط البياض والسواد .

(٢) (فيشرئبون) اشرأب الى الشيء : اذا تطلع ينظر اليه .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .